المستشفيات والبيمارستانات

مستشفيات دمشق

إقامة دور للبائسين ومآوى للضعفاء وأصحاب العاهات والزمانات من أمارات الحضارة ودلائل ارتقاء الإنسان في العطف على من خانتهم الطبيعة. روى البلاذري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرَّ عند مقدمه الجابية من أرض دمشق بقوم مجذمين من النصارى فأمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجري عليهم القوت. ووقف عثمان بن عفان محلة سلوان في ربض القدس على ضعفاء البلد، وأول من اتخذ المستشفيات صدر الإسلام الوليد بن عبد الملك، فإنه أقام في دمشق على ما يروى مستشفى للمجذومين بالقرب من الباب الشرقي في محل يسمى الآن بالأعاطلة؛ ذلك لأن في ماء دمشق على ما قالوا خاصية دفع مرض الجذام عن أهلها فلا يصيبهم إلا في الندر، وإذا حل الغريب المصاب به نكسر عنه عاديته أو يتوقف سيره في جسمه. قال ابن عساكر: كان الوليد عند أهل الشام من أفضل خلفائهم، فرض للمجذومين وقال: لا تسألوا الناس، وأعطى كل مقعد خادمًا وكل أعمى قائداً. وذكر بعضهم أن الوليد لما ولى إسحاق بن قبيصة الخزاعي ديوان الزمني بدمشق قال: لأدعن الزمِن أحب إلى أهله من الصحيح، وكان يؤتى بالزمن حتى توضع في يده الصدقة. وفي سنة (١٦٢) أمر المهدي أن يجري على المجذومين وأهل السجون في جميع الآفاق. وبذلك عرفنا أن القوم يخصون المجذومين بأماكن خاصة لئلا تسري العدوى منهم إلى غيرهم. أما المستشفيات فللأمراض الأخرى.

ولقد كان بدمشق ثلاثة مستشفيات أو بيمارستانات -والبيمارستان كلمة فارسية مركبة معناها محل المرضى- الأول (٥٩٥) أنشأه نور الدين محمود بن زنكي كما أنشأ غيره في الشام. وكان بيمارستان دمشق أعظمها وأكثرها خرجًا ودخلًا. قال صاحب الروضتين: بلغني في أصل بنائه نادرة وهي أن نور الدين رحمه الله وقع في أسره بعض أكابر ملوك الإفرنج فقطع على نفسه في فدائه مالًا عظيمًا فشاور نور الدين أمراءه فكل أشار بعدم إطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين، ومال نور الدين إلى الفداء بعد ما استخار الله تعالى فأطلقه ليلًا، فلما بلغ الفرنجي مأمنه مات، وبلغ نور الدين موت الفرنجي فبنى بذلك المال هذا البيمارستان ومنع المال الأمراء؛ لأنه لم يكن عن إرادتهم. تولى بناءه كمال الدين الشهرزوري وكان الحاكم المحتكم في الدولة النورية بدمشق، وهو الذي تولى بناء أسوارها وسنَّ دار العدل لتنفذ أحكامه بحضرة السلطان فلا يبقى عليه مغمز وملمز.

وذكر ابن جبير أنه كان في القرن السادس بدمشق مارستانان قديم وحديث، والحديث أحفلهما وأكبرهما وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر دينارًا وله قَوَمة بأيديهم الأزمة المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك، والأطباء يبكرون إليه في كل يوم ويتفقدون المرضى ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل إنسان منهم، والمارستان الآخر على هذا الرسم؛ لكن الاحتفال في الجديد أكثر. وأغلب الظن أن البيمارستان الكبير هو النوري، والآخر غيره[1] (٥٩٦) كان في باب البريد

(١) قال الظاهري: وفي دمشق بيمارستان لم ير مثله في الدنيا قط، واتفقت نكتة أحببت ذكرها وهي أني دخلت دمشق سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة وكان يصحبني شخص عجمي من أهل الفضل والذوق واللطافة، وكان قاصد الحج في تلك السنة وألف

وخدم في هذا رشيد الدين بن علي بن الخليفة وعز الدين السويدي من الأطباء المشهورين.

وفي شذرات الذهب أن المارستان الصغير بدمشق أقدم من المارستان النوري كان مكانه في قبلة مطهرة الجامع الأموي، وأول من عمره بيتًا وخرب رسوم المارستان منه أبو الفضل الأخنائي ثم ملكه بعده أخوه البرهان الأخنائي وهو تحت المئذنة الغربية بالجامع الأموي من جهة الغرب، وينسب إلى أنه عمارة معاوية أو ابنه.

أمَّا المستشفى الثالث (٥٩٧) فهو المستشفى القيمري في الصالحية بجوار جامع محيي الدين عربي نسبة لمنشئه أبي الحسن القيمري المتوفى سنة (٦٥٣) وواجهة الباب من أجمل الأبواب هندسة، وقد رمّه حسن باشا المعروف بشور يزي حسن ونظر إلى أوقافه وأقام شعائره كما فعل في البيمارستان النوري، وقد رمم في العهد الأخير وأعيد إلى ما كان عليه.

وقرأت في كتاب الجوامع والمدارس صورة وقف البيمارستان القيمري فإذا فيه: هذا وقف أبي الحسن بن أبي الفوارس القيمري على بيمارستانه في الصالحية على معالجة المرضى والمعالجين والأشربة وأجرة الطبيب، يصرف إلى الطبيب في كل شهر لواحد سبعون درهمًا ونصف غرارة من قمح، والأدنى ستون درهمًا ونصف غرارة قمح،

مناسك الحج على أربعة مذاهبَ، فلما دخل البيمارستان المذكور ونظر ما فيه من المأكل والتحف واللطائف التي لا تحصر قصد اختبار حال البيمارستان المذكور، فتضاعف وأقام به ثلاثة أيام ورئيس الطب يتردد إليه ليختبر ضعفه، فلما جسَّ نبضه وعلم حاله وصف له ما يناسبه من الأطعمة الحسنة والدجاج المسمنة والحلواء والأشربة والفواكه المتنوعة، ثم بعد ثلاثة أيام كتب له ورقة من معناها أن الضيف لا يقيم فوق ثلاثة أيام.

وهذا في غاية الحذاقة والظرافة، وقيل: إن البيمارستان منذ عمر لم تطفأ فيه النار. اهـ.

وللمشارف في كل شهر أربعون درهمًا ونصف غرارة قمح، وللكحال في كل شهر خمسة وأربعون درهمًا ونصف غرارة قمح، وللحوائج في كل شهر ثلاثة عشر درهمًا وربع غرارة قمح، وإلى ثلاثة رجال يقوم لكل من الرجال في كل شهر ثلاثة عشر درهمًا وسدس غرارة قمح، ولمن يقوم بمريضات النساء والمجنونات في كل شهر لكل واحدة عشرة دراهم وسدس غرارة قمح، وإلى الشراب وبائعه لعمل الأشربة والمعالجين في كل شهر ستة وعشرين درهمًا وثلث غرارة قمح، ولأمين المشارفين والمتولين في الوقف إلى كل واحد في كل شهر ستون درهمًا وغرارة قمح وغرارة شعير، وللإمام في كل شهر أربعون درهمًا وثلث غرارة قمح، وللمعمار المرتب لعمارته في كل شهر ثلاثة عشر درهمًا وسدس غرارة قمح، ويكون بوابًا، وللحوايج في كل شهر ثمانية دراهم وسدس غرارة، وللناظر العشر عن المغل، وربع الوقف ويصرف إلى رجلين اثنين بخدمة البيمارستان عن ثمن قدور ونحاس وفرش ولحف ومخدة، وفي كل شهر إلى قيمه والمؤذن بالمسجد بقرب البيمارستان خمسة وعشرون درهمًا، فإن فضل يصرف إلى فكاك الأسارى من الكفار، وبعد ذلك عاد وقفًا على الفقراء. وتاريخ الوقفية سنة (٦٥٢) وتاريخ المسجد سنة (٨٨٠) ثم ذكر القرى والبساتين والحوانيت والطواحين التي وقفها على بيمارستانه.

وظل المستشفى النوري عامرًا إلى سنة (١٣١٧هـ) وكان أطباؤه وصيادلته لا يقلون عن عشرين رجلًا حتى قامت بلدية دمشق بإنشاء مستشفى للغرباء (٥٩٨) في الجانب الغربي من التكية السليمانية المظلة على المرج الأخضر، وجمعت له إعانات وأخذ مبلغ من واردات البلدية وأوقاف المستشفى النوري واحتفل في ١٥ ذي القعدة (١٣١٧) بافتتاح المستشفى الجديد وخصصت أوقاف المستشفى النوري ومبلغ خمسمائة ليرة تؤخذ مسانهة من ريع البلدية تصرف على المستشفى الذي سمي

بادئ بدء بالمستشفى الحميدي نسبةً إلى السلطان الذي بني في عهده. أما بناية المستشفى النوري فقد جعلت مدرسة وواجهتها لا تزال بحالها وفيها بعض الحجر والنوافذ من البناء القديم، والغالب أن الأيام سطت على بقية البناء فتغيرت معالمه. وقد رمت واجهته مؤخرًا.

وزاد المستشفى الجديد رونقًا ورواءً مقبرة الصوفية التي ضمت إليه وجعلت حديقة للمستشفى. وقد سمي المستشفى على عهد الحكومة العربية بالمستشفى الوطني، وأُقيمت مدرسة الطب بجانبه والحكومة متكفلة بالإنفاق عليه.

وفي دمشق لهذا العهد عدة مستشفيات؛ الأول:

٥٩٩- ((المستشفى العسكري)) وهو من بناء إبراهيم باشا المصري في القرن الماضي.

٦٠٠- ((المستشفى الإسكتلندي)) وفي ١١ ذي القعدة (١٣١٥) ٢٤ أيار (١٨٩٩) احتفلت جمعية إسكتلندا الإنكليزية بافتتاح المستشفى الذي أسسته في أرض الزينبية على طريق بغداد، وهو على غاية من حسن الهندسة وجمال الحديقة وسعتها.

٦٠١- ((المستشفى اللعازري)) بنته أخوية اللعازريين الإفرنسية قبالة المستشفى الإسكتلندية وهو حسن البناء والنظام أيضًا.

٦٠٢- ((مستشفى الراهبات اللعازريات)) وهو قديم قرب مدرسة اللعازرية.

((المستشفى الوطني)) أو مستشفى مدرسة الطب وقد مر ذكره.

٦٠٣- ((المستشفى الطلياني)) في الصالحية قبل الجسر.

٦٠٤- ((مستشفى المجاذيب)) المسمى بمستشفى ابن سينا أنشئ له مكان في قصير دومة.

مستشفيات حلب

٦٠٥- ((بيمارستان بني الدقاق)) كان يعرف بهذا الاسم ثم دخل في دار سودون الدوادار غربي المدرسة الحلاوية لا أثر له اليوم.

٦٠٦- ((بيمارستان بني الدقاق)) على باب الجامع الكبير، كان له بوابة عظيمة ينسب لابن خرخان، لما تعطل كان يجلس فيه الكحالون فعرف بدار الكحالة، بقي منه ثلاثة مخادع صغيرة يسكنها بعض الفقراء.

٦٠٧- ((بيمارستان نور الدين)) هو في الزقاق المعروف الآن بزقاق البهرمية من محلة الجلوم الكبرى، مكتوب على بابه أنه أمر بعمله محمود بن زنكي بتولي ابن أبي الصعاليك. ويظهر أنه حصل فيه إصلاحات كثيرة، فإنه كان فيه قاعة للنساء مكتوب عليها أنها عمرت في دولة صلاح الدين يوسف سنة (٦٥٥)، ومكتوب على إيوانه أنه عمر أيام الأشرف شعبان المتوفى سنة (٧٧٩) وعلى الشباك الذي على بابه أنه أحدث سنة (٨٤٠) وكانت قاعة المنسهلين سماوية فسقفها القاضي شهاب الدين بن الزهدي. أما الآن فقد صارت حجراته تلالًا ولم يبق إلا بضع منها يسكنها بعض الفقراء. وقد جاء في بعض التواريخ أن هذا البيمارستان كان في الأصل من وضع ابن بطلان الطبيب البغدادي المتوفى سنة (٤٥٨)، ثم جدده نور الدين ووقف عليه أوقافًا كثيرة وهو في أصح بقعة هواءً. حدثني الثقة أنه اطلع على صك وقف أحد المستشفيات في حلب قال: جاء فيه أن كل مجنون يخص بخادمين يخدمانه فينزعان عنه ثيابه كل صباح ويحممانه

بالماء البارد، ثم يلبسانه ثيابًا نظيفة ويحملانه على أداء الصلاة ويسمعانه قراءة القرآن يقرأه قارئ حسن الصوت، ثم يفسحانه في الهواء الطلق ويسمع في الآخر الأصوات الجميلة والنغمات الموسيقية الطيبة.

٦٠٨- ((بيمارستان أرغون الكاملي)) هو في محلة اسمها الآن باب قنسرين، أنشأه أرغون الصغير الكاملي نائب حلب سنة سبعمائة وخمس وخمسين، رتب كل ما يحتاج إليه من رزق وآلات وأدوية وخدام، شرط واقفه أن التولية لكافل حلب فكان في كفالة تغري برمش على أتم الوجوه، فيه حجر وأروقة ومحابس للمجانين مظلمة، يروى أنه كانت توضع فيه الرياحين ويؤتى بآلات الطرب والمغنين لتكون هذه المشاهد والأنغام من تمام العناية بالمداواة، ثم في أواخر عهد الأتراك نقل من كان فيه من المجانين إلى مستشفى الغرباء وأصبح هو مأوى لبعض الفقراء. وفي مدخله أفاريز ونقوش من أجمل ما نقش النقاشون تزينه.

٦٠٩- ((مستشفى الرمضانية)) أنشأه إبراهيم باشا المصري، وهو مخصص لمرضى العسكر.

٦١٠- ((المستشفى الوطني)) بدئ به سنة ثلاثمائة وألف وبعد بلوغه نحو النصف ترك، ثم أكمل بعد نحو عشر سنين وجعل للمرضى الغرباء والفقراء.

٦١١- ((المستشفى الزهري)) أنشأته إدارة الصحة للأمراض الزهرية بعد تأليف الحكومة العربية.

بقية المستشفيات

المارستان النوري هو المستشفى الوحيد في حماة، بناه نور الدين محمود وكانت التولية عليه سنة ألف للشيخ صفا العلواني، وكان مجموع نفقته كل يوم ثمانية وثمانين عثمانيًا (العثماني أو السلطاني نحو سبعة قروش)، وهو الآن شبيه بالمندرس يستعمله بعضهم للسكنى وذهبت أوقافه إلا قليلًا. وقد وجد على حجر في المارستان بالجانب الغربي من أعلى البنيان كتابتان الأولى سنة خمس وسبعمائة وهي: رسم الملك لأمر بختشاي الكافلي بحماة بإبطال ما كان يؤخذ من البيمارستان بغير طريقة وأن وقفه يصرف على ما وقفه الواقف على السكر والأشربة وذلك بأمر السيفي. والثاني: لما كان بتاريخ الشهر المحرم سنة ثلاث وثلاثمائة حضر الجناب العالي السيفي المارستان النوري بحماة المحروسة داود المقر السيفي درداس الخاصكي كافل المملكة الحموية، أعز الله أنصاره وتبرع بمعلومه على الضعفاء المقيمين به وهو في كل شهر مائة دراهم لاغتنام الأجر والدعاء. اهـ.

وفي حماة اليوم مستشفى واحد، ومثله في حمص، وآخر في درعا، ورابع في القنيطرة، وخامس في يبرود، وسادس في دير الزور، وفي إسكندرونة مستشفى، وذلك ما عدا المستوصفات في كثير من الأقاليم، وكل هذه المستشفيات والمستوصفات بإدارة الصحة والإسعاف العام ويقوم بإدارتها وتمريض مرضاها أطباء وطنيون.

وكان في طرابلس ((مارستان)) أنشأه بدر الدين محمد بن الحاج أبي بكر أحد الأمراء بحلب المتوفى سنة (٧٤٢). وفي طرابلس اليوم مستشفى كان سمي مستشفى عزمي بك أحد عمالها الذي قام بتنشيطه.

وقبل ٥٥ سنة جاء نابلس مبشر إنكليزي وأسس فيها مستشفى، وأخذ يعالج المرضى بأجور طفيفة ويكرههم على استماع وعظه فتحسس المسلمون وأسسوا سنة (١٣٢٦) شرقية المستشفى الوطني وهو إلى اليوم سائر سيرًا حسنًا يقوم بأموالهم وريع البلدية.

أسس البرتستانت عدة مستشفيات ومستوصفات في الشام منها في طبرية والناصرة وصفد والصلت وصيدا والقدس ويافا وحيفا وبيروت ودمشق وغيرها من البلدان، ولا تكاد تخلو المدن المهمة من مستشفى أو شبه مستشفى مثل اللاذقية وطرطوس، ومنها مستشفى خاص بمرض السل ومستشفى العصفورية للمجاذيب في لبنان، وكان في الخليل مستشفى جميل اسمه المنصوري، وقفه الملك المنصور قلاوون، ومستشفيات الصهيونيين في القدس وحيفا ويافا وغيرها مهمة في بابها.

وقد أقام الصليبيون في المدن التي احتلوها بعض مستشفيات منها واحد في صور وكان لهم في القدس مارستان وهو من الأماكن التاريخية كان عبارة عن ١٥٥ مترًا طولًا و١٣٧ عرضًا، وعليه قامت في القرون الوسطى الملاجئ والمستشفيات الخاصة بزوار الغرب ولا سيما رهبنة فرسان القديس يوحنا ومستشفياته. وحوَّل ابن أخت صلاح الدين كنيسة الملجأ إلى مستشفى وبقي اسمه العربي الفارسي -أي المارستان- يطلق منذ ذاك العهد على مجموع تلك الأماكن. وفي سنة (١٨٦٩م) أعطى سلطان العثمانيين النصف الشرقي من المارستان إلى تاج بروسيا بمناسبة زيادة ولي عهد بروسيا للقدس. وقد كان صلاح الدين جعل دار الأسقف في القدس لما فتحها بيمارستان المرضى.

ومستشفيات القدس اليوم كمستشفيات بيروت مهمة لكثرتها ووفرة ريعها وتنافس المبشرين في تجويدها وتخيرهم لها أحذق الأطباء، وفي

بعض قرى لبنان مستشفيات صغيرة ومصاح منها مصح بحنس ومستشفى جمعية الفرندس في برمانا، ومصح ضهر الباشق وغيرها، وفي عمل دومة من دمشق مستشفى ابن سينا لأصحاب الأمراض العقلية.

لهفة على المدارس وغيرها

أرأيت أيها الناظر في هذا الكتاب، كيف كان عمل الأجداد في إنشاء المدارس والربط والخوانق والمستشفيات، وكيف تساوى في تأييدها والوقف عليها الملوك والعظماء وجمهور الناس من الرجال والنساء، وكيف جودوا بناءها وأحكموا وقوفها الدارة، ومع هذا لم تقو على مقاومة المخربين والغاصبين فعاد أكثرها دورًا وحوانيت، أزهرت في أربعة قرون واستصفيت في أربعة، استصفاها من ارتكبوا العار في الاستيلاء عليها من دون حرج، عملوا هذا وهم متنمسون بالدين يصلون ويصومون، ويقال عنهم: إنهم المسلمون، وربما كان على أبدان بعضهم شعار العلماء وما هم في الواقع إلا من أهل الرسم لا من أهل العلم، وقد يكون أقرب الناس إلى مخالفة الشرع القائمون عليه.

ترى هل تلام الحكومات على هذا العبث بالمدارس وانتهاك حرمتها أم تلام الأمة؟ لا شك أن الحكومات ينالها قسط كبير من الملامة؛ لأنها هيأت سبل السرقات، وربما كانت مشتركة بالسرقة أحيانًا، ولكن اللوم كل اللوم على الجماعة والمدارس مدارسهم والدين دينهم. ومنذ عبث العابثون بالمدارس، وسرق السارقون عينها ومغلها، تراجعت دروس الدين وتراجعت معها دروس العلوم الأخرى ففشا الجهل المطبق في الأمة، وكادت تعود سيرتها الأولى من الجاهلية الجهلاء، وأصبح من وسموا بالعلم إذا سئلوا أفتوا بغير علم، وجوزوا ما حرمه الشرع وحرموا

ما جوزه، ومن مساويهم أكل أموال الأقاف واستصفاء أعيانها، ومعدهم تهضم خصوصًا المساجد والمدارس.

أضاع الخلف ما أبقاه السلف معمورًا زاهرًا من المدارس التي كانت في العصور الغابرة غاية ما وصل إليه العقل البشري ظرفًا ومظروفاً، وبها أثبت أجدادنا أنهم كانوا شيئًا مذكورًا في إتقان الهندسة والبناء، وأنهم على جانب من سلامة الذوق، وأنهم حراص على مجد أمتهم، وأن الأعمال العظيمة لم تقم بنفسها لو لم يفكر فيها عقول كبيرة، وما كانت تلك المدارس تعمر لو لم يدرس فيها نوابغ من رجال العلم والآداب، ولو لم تكن ذات قانون معقول. نعم لم نعرف سر هذه الصناعة التي مثلتها لنا هذه المدارس، ولعله يقوم في الجيل المقبل أبنائنا علماء بالآثار والبحث يكشفون سر أعمال الأجداد كما توفر علماء الآثار في أوربا مائة سنة حتى كشفوا لأممهم أسرار البيع العظمى التي قامت خلال القرون الوسطى، وعسى أن يبرهن الباحثون منا أنه لم يقم في الأرض شيء من العظمة إلا كان إلى جانبه عظماء يتعهدونه ويغذونه بعقولهم، ويفضون عليه من معين قرائحهم.

قلت مرة من محاضرة ألقيتها في الشهباء في ربيع سنة (١٣٤١هـ-١٩٢٣م) وقابلت فيها بين مدارس حلب ودمشق: من تأمل مدارس أرباب الخير من المسلمين في الشهباء والفيحاء، وقرأ ما كتب بتأمل، وزارها المرة بعد المرة على تغير معالمها، وتشويه طرأ على محاسنها، وفساد عرا أذواق الأبناء والأحفاد، إذا قيس إلى سلامة ذوق الأجداد، وجعل نسبة بين عدد ما عمر منها وما بقي في البلدتين الشقيقتين يؤكد معنا أن الفساد استحوذ عليها في دمشق أكثر من حلب، وأن من تجردوا من الوجدان فاستحلوا استصفاء تلك المدارس كانوا في الفيحاء اكثر من أمثالهم في

الشهباء، ولذلك كان عدد الباقي في حلب أكثر وأجود من المدارس في دمشق.

ولا ينكر أن مادة البناء قد تختلف في بلد عن آخر، وقد كان الاعتماد في تلك القرون على الحجر الصلد، وفي دمشق عدة مقالع جميلة منوعة منه كما في حلب، ولم يكثر الآجر والطوب والخشب إلا في القرون الحديثة، ولذلك لم تخرب المدارس الدمشقية لعدم متانة في بنائها، فإن الأمثلة الظاهرة منها إلى اليوم لا تجعلها تختلف في شيء عن مدارس حلب؛ ولكن القائمين على هذه المدارس في هذه المدينة كانوا يعتدلون في العبث بها، ومتانة الأخلاق من جملة ما امتاز به الحلبيون، يضاف إليها حب الاحتفاظ بتراث الأجداد على صورة كانت ظاهرة في قرون الارتقاء، كامنة في عصور الشقاء والرجوع إلى الوراء.

والناظر إلى مدارس دمشق وحلب وهي لا تقل عن ثلاثمائة مدرسة، منها زهاء مائتين في دمشق يدرك أنها من عمل السلاطين والعمال وقليل من التجار وأهل الخير، وكان منهم من يتوخى منها أن تكون توليتها لبنيه من بعده ليعيشوا منها إذا صودرت أملاكهم، بنى قليل من التجار المدارس لأن الشعب كان يفنى في أغلب العصور في كبرائه، فلم يكن شأن في مظاهر النعمة والغبطة مدة قرون لغير أرباب الدولة أو من كان يعد في جملتهم، وكان الناس يحاذرون أن تنشأ لهم شهرة في الثروة، والثروة تتجلى في الدار والفرش والدابة واللباس، وفي بذل المال لإقامة دور العلم وإيواء اليتامى والمحاويج، فكانوا يتظاهرون بالفقر لينجوا من مخالب العمال.

وقلَّ أن رأينا جماعة اتفقوا على إقامة عمل من هذا القبيل يفتخر به اللهم إلا قليلًا من المساجد، ولو فعلوا لأمنت أعمال الجماعات من

اعتداء المعتدين اكثر من عمل الأفراد، ولما استصفت واستحل هدمها، ولا غير خططها ومعالمها من لا يخافون الله ولا عباده، ولجاءت ممثلة للعظمة الحقيقية في الأمة، على نحو ما قامت البيع والأديار والمدارس في الغرب، بإرشاد رجال الدين من كرادلة وأساقفة وقساوسة، فكانوا يجمعون قليلًا من صدقات الملوك والأغنياء والفرسان والشعب، فيجيء مجموعها عظيمًا يدار بأيدي هيأة منظمة على كل حال، ويختطون خطة لا يخرج عنها الخلف إلا قليلًا.

للأثر القديم من الموقع في النفس ما ليس للأثر الحديث، فإن الأول يذكر بأمور كثيرة، يذكر بمجد السلف وأياديهم البيضاء وإرادتهم الصحيحة، يذكرنا بأن فلانًا الذي تحترمه الأمة بنى ذاك المصنع وتلك الدار، وأن فلانًا العالم درَّس هناك أو كان يألف المكان الفلاني، وكم من أثر تاريخي أو مصنع من مصانعنا نمر به دون أن نحفل بما فيه من عبر، ولو كنا على شيء من مدينة أجدادنا ما زهدنا هذا الزهد البشع في تراثهم، ولو اقتبسنا المدينة الحديثة بمحاسنها ومساوئها لرأيتنا أسرع إلى التقاط آثار الجدود والاحتفاظ بها من الماء إلى الحدود.

لا تستطيع أمة أن تقطع الصلة بينها وبين ماضيها، خصوصًا إذا كانت ذات غابر عظيم كغابر الأمة العربية، قام على أساس متين، وتقاليد جميلة، ومقدسات متسلسلة، أما ونحن لا نرقى بدون القديم والأخذ من نافع الحديث، فواجب العقلاء أن يفكروا في أقرب الطرق إلى هذه الغاية، وهذا لا يتم بغير إحياء دور العلم ومعاهد الفضل، وإحياؤها موقوف على قليل من العناية.

ليس للمدرسة الحديثة التي ننشئها اليوم تلك النضارة، ولا تتجلى فيها معاني الحسن والإحسان التي نشعر بها ونكاد نلمسها في المعاهد القديمة

مثل مدرسة ضيفة خاتون -رحمها الله- فإنك إذا رأيتها تمثلت أمامك صفحة من تاريخ هذه الأمة المجيد؛ تمثلت بيت بني أيوب وأفضالهم على ربوع الشام، وكفى بهم وبصلاح الدين حسنة عقم الدهرُ أن يلد مثلها. كثير من المصانع بناها الملوك بالسخرة وإرهاق الرعية، وإعنات الأسرى والمعتقلين، ولم نقرأ في التاريخ أن أحدًا من آل البيت الصلاحي عمَّر مدرسة أو جامعًا أو مستشفى أو رباطًا من مال مشبوه، أو سخرة ممقوتة، فأكرم وأنعم بكل فرد أصيلًا كان في هذا البيت الشريف أو دخيلًا عليه ....

عمَّر أهل الخيرات من سلف هذه الأمة هذا القدر العظيم الذي نعجب به من معاهد التعليم الديني دع المساجد والجوامع، ولو كتب البقاء لبعضها لأغنت القوم بعض الشيء بمعارفها ونشرت النور بينهم. وكانت المدارس والجوامع في تلك القرون المظلمة في الغرب المستنيرة في هذا الشرق هي المتكفلة بتعليم الناس وإخراجهم من الأمية، وكان لمعظم المدارس والجوامع كتاتيب مرتبطة بها وخارجة عنها لتعليم الأطفال تؤهلهم لتلقي دروس المدارس والجوامع، ولا نغالي إذا قلنا: إن عدد الأميين كان في تلك العصور أقل مما هو الآن في هذه الديار. ولو اطرد العمل اطراده في مدارس الغرب مثلًا لأصبحنا في هذا القرن والأميون أقل مما هم في مماليك المدنية الحديثة.

ولكن الجهل قضى على تلك المدارس وأكل المتولون أوقافها فخربت وتغيرت معالمها. وكم من وقف يستمتع به النظار عليه يصرفون ما وقف على الخير في سبيل شهواتهم بدون محاسب من ذممهم ولا رقيب من أصحاب السلطان. ولو كتب لهم أن يأكلوا منها بالمعروف ويصرفوا حقوق تلك المعاهد أو بعض مغلها على رمها وإجراء الرزق على ساكنيها والدارسين فيها لأتت بثمرات جنية، ولما أكلوا في بطونهم

النار، وركبوا متن العار والشنار، وكم من بيت كان موسومًا في القديم بالعلم والتقى فخلف من بعد السلف خلف عبثوا بالحرمات؛ فاستحلوا أموال المدارس والمعابد فدثر البيت وانقرضت الأسرة وذهبوا وما يملكون جملة، لم يُرحموا لأنهم لم يَرحموا.

ضبطت الحكومة السابقة أكثر أوقاف الملوك والسلاطين وكان ريعها كثيرًا جدًّا في هذه الديار، فلم تصرفها فيما خصصت له ولم تنجح في الغاية التي توختها منها، واستقل بعض أرباب النفوذ بالأوقاف التي ائتمنوا عليها أو انتهت إليهم بحكم الوارثة فأساءوا الاستعمال إلا من عصم الله. فالسبب إذًا في خراب مدارسنا الجميلة سوء إدارة الحكومات السالفة وعبث المتولين عليها وإخراجها عما وضعت له من عمل الخير بصنع أولئك الذين يعدون أنفسهم في جملة حماة هذا المجتمع وهم أعدى عداته. اهـ.